إلى السلاح .. يا عرب

للأستاذ علي الطنطاوي

يا أيها القراء ! إني ما جئت أصب في أعصابكم قوة ليست فيها ، ولكن جئت أثير القوة التي نامت في أعصابكم

وما جئت لأجعلكم خيرا مما أنتم عليه، ولكن جئت لأفهمكم أنكم خير مما أنتم عليه . جئت أضرم جمرة الحماسة التي غطاها في نفوسكم رماد الكسل. فأعينوني على نفوسكم باستعادة الثقة بها ، وبسلائق المروءة التي ورثتها ، وبعزة الإسلام التي كانت لها . واعلموا أنكم إن فقدتم عزتكم ، وأضعتم سلائقكم ، لم تكونوا جديرين بمحمد ، ولم يكن لكم الحق في الاحتفال بمولد محمد !

يا سادة ! إن الأمم كالأفراد : ألا يكون الرجل منكم رائحا من عمله ، خائر الجسم ، واني العزم ، كل أمانيه أن يصل إلى الدار فيلقي بنفسه على أول مقعد يلقاه ، قبل أن يستنفد الجهد قواه ، فيجد في الدار بشارة بأنه رفع درجة ، أو نال جائزة ، أو هبط عليه إرث ضخم ، من قريب منسي ، فيحس بأنه انتفض كما ينتفض العصفور بلله القطر ، وانتعش كما ينتعش النبات أوراه الماء ، ونشط كما ينشط الجمل أطلق من عقال ؟

ألا يكون أحدكم مرخي الأعصاب ، خامل الجسد ، قد خدره النعاس حتى ما يقدر أن يفتح عينيه ، فيعدو عليه عاد ، أو يطرقه لص ، أو يحقره إنسان ، فيشعل الغضب في دمه نارا ، ويشد من أعصابه أوتارا ، فيثب يريد أن يقتحم الجدار ، أو يخوض النار ؟

ألا يكون أحدكم تعبان كسلان ، يجر قدميه من الوني جرا ، يظن أنه سيسقط من كلاله على الأرض ، فيلحقه عدو فاجر ، أو يطارده وحش كاسر . فإذا هو ينطلق انطلاق القذيفة من فم المدفع ، ويعدو عدو الغزال المروع ؟

هذه أيها الناس القوة المدخرة في أعصاب الإنسان ، يظهرها الأمل ، ويبديها الغضب ، ويبعثها الخوف . وفي الأمم قوة كهذه القوة . وما الأمة إلا الأفراد . الأمة أنا وأنت وهو وهم وهن ، أفلا تحس إن غضبت أو فرحت أو جزعت أن نبضك يسرع ، وقلبك يخفق ، ووجهك يصفر أو يحمر ، وجسدك كله يتبدل ويتغير ؟ فكذلك الأمم ، تكون نائمة آمنة ، قد غلب عليها الخمول ، وشملها الارتخاء ؛ فما هي إلا أن يبعث الله لها القائد المبقري ، يصرخ فيها ينذرها خطرا ، أو يحذرها عدوا ، أو يعدها نصرا مؤزرا ، حتى تثب كما يثب الجندي المستريح إلى سلاحه : فتعمل العجائب ، وتصنع المعجزات ، وتدع التاريخ حائرا من فعلها مشدوها

وهذه هي الأمثلة ملأ العصور ، وتتزع صفحات التاريخ، الأمثلة من الشرق والغرب ، من القديم والحديث ، حيثما تلاقم وجدتم مثالا

هذه مصر ! كانت على عهد المماليك ، بلد الجهل والافتراق والضعف والتخاذل ، فما هي إلا أن بعث الله لها محمدا عليا ، حتى نهضت نهضة الأسد ، فكانت لها المدارس والصحف والمصروح والمصانع ومعامل السلاح ، وكان لها الجيش الذي فتح الشام ، وقهر الأتراك سادة الجحافل ، وأبطال الميادين ، وكاد (لولا مكر انكلترا وغدرها) يهد عرش آل عثمان . وكان لها الأسطول الضخم الذي كاد (لولا تلك الجريمة التي لم يحاسب عليها بعد مجرموها) يميد البحر المتوسط ، بحر العرب ، كما كان أيام عز العرب

وهذه جماعة الأتراك من آل عثمان ! كانت قبيلة بدوية تسكن القفار ، وترعى الأبقار، ليست في عير ولا نفير ؛ فلما بعث الله لها عثمان وشرفه بالإسلام ، صارت به وبخلفائه الأولين؛ مرادو الفاتح وسليم وسليمان ، صاحبة القسطنطينية ، ومالكة ما بين خراسان وأسوار فينا ، وصار البحر المتوسط بحيرة في أملاكها .

وهذه فرنسا ! ماذا كانت فرنسا في أعقاب ثورتها ؟ أمة الفوضى والانحلال، والحيرة والضلال ، والتبدل من حال إلى حال ! فما هي إلا أن جاءها نابليون حتى ملكت تحت لوائه أوربة

كلها ، وصارت أمة الأمم

وهذه روسيا ! كانت بلادا أدنى إلى الهمجية والجهالة ، فما هي إلا أن جاءها بطرس حتى غدت به بلدا أوربيا من بلاد المدنية والعمران

بل هـذا هو المثل الأغر المحجل ، الذى لا تدانيه الأمثلة ، ولا تضارعه فى سموه النهضات

هذه القرية التى كانت متمددة وراء الرمال ، ناءمة فى ظلمات من الجهل والفقر والجدب فوق ظلمات ، لا تدرى بهـا المدن الـكبار ، ولم يسمع بها التاريخ ، هزها بيمينه سيد العبقريين ، وأعظم العظماء ، من كان فى الأرض سفير السماء ، وكان إمام الرسل وأفضل الأنبياء : محمد

هزها ، فإذا هذه الرمال المحرقة التى لا تعيش فيها الحيـاة ، تنبت السهول الخصاب ، والرياض والجنات ! وإذا هـذه القرية الضائعة تلك المدن العظام : الـكوفة والبصرة وبغداد والقاهرة والقيروان ! وإذا هذه القبائل المتفرقة تخرج الجيش الذى فتح الشرق والغرب ، وملك ثلثى العالم المتمدن فى ثلث قرن ! وإذا هذه الأمة الجاهلية تنجب الأساتذة الذين علموا الدنيا ، وأرشدوا أهلها ، وأقاموا أعظم حضارة عرفها البشر ، حضارة خير وحق وجمال ، ليست حضارة قتل وتدمير ، ومصائب وانكليز ، ويهود وبارود ، وقنبلة ذرية ...

وأمامكم من هذه الأمثلة مئات

بل إننـا نستطيع اليوم فى كل قطر عربى أن نضرب من أنفسنا الأمثال

إنه لا ينقصنا الحزم والسؤدد ، ونسير على سنن الجدود ، إلا حرب تنبه ، أو زعيم عبقرى يقود . إننا لا نريد إلا أن يتحمس العرب ، أو يغضب العرب ، أو يخاف العرب ، فتوقظهم الحماسة ، أو يثيرهم الغضب ، أو يحركهم الخوف ، فيرجعوا إلى مكان الصدارة بين الأمم

إن سوريا الصغيرة تستطيع أن تـكون من الدول الأوائل على وجه الأرض حضارة وعلما وقوة ومالا

لا . لا تقولوا نحن قليل ، فاليهود أقل منا

لا تقولوا : نحن قليل ، فإن أرق دول أوربة رقيا ، وأفضلها حضارة ، هى أقلها ناسا ، وأضيقها رقعة : سويسرا وهولندا ودول الشمال ، ونحن أحسن من بعضها موقعا من الأرض ، وبلادنا أوسع ، وخيراتها أكثر ، ونحن أسرع سيرا فى طريق النجاح

ألا ترون ما صنعنا من (يوم الجلاء) إلى اليوم ؟

أما عملنا فى خمس سنين ما لم نعمل مثله فى خمسين سنة ؟

أما صار لنا جيش ؟ أما غدت لنا جامعة ؟ أما أقيمت فى بلدنا (معامل الشركة الخماسية) التى شهد كل من رآها بأن الحضارة لم توجد اليوم أعظم منها ؟ أما استبدلنا بالمحاريث التى كانت تجرها البقر أضخم الآلات فزادت زراعتنا أضعافا ؟

هل لأمة مثل ما لنا من الحزم والعزم ، وركوب الفلوات ، واقتحام اللجج ، والضرب فى الأرض ! هل على ظهر هـذه الـكرة بلد ليس فيه رجال منا ، نزلوه فقراء فصاروا فيـه من كبار الأغنياء ؟ أليس فى الأمريكتين وفى أوربة كلها وفى السنغال وفى الـكونغو وفى الـكاب وفى شنغهاى وفى اليابان رجال من الشام يجاهدون المال ، ويعملون للغنى ، ويدهشون أهل كل بلد نزلوه ، بتلك الهمم وهاتيك العزائم ؟

هل نزل اليهود بلدا فلم يكونوا أرباب المال فيه ، إلا الشام ، فما كان اليهودى فى الشام إلا متجرا بعتيق الثياب ، يدور بهـا على الأبواب ، أو منظفا لمجارى الـكنف تحت الأرض ؟ ذلك لأن أهل الشام أبصر بالعمل ، وأعرف بطرق جمع المـال من اليهود

وهذا والله فخر لهم ، وإن عده ناس طعنا عليهم

أفيميننا (معشر العرب) ولنـا هذى السجايا ، أن نتقلد السلاح ، ونرجع أمجاد الأجداد ! أتعجزنا حرب إسرائيل ؟

أهؤلاء الزعانف أوشاب الأمم ، أم دول أوربا لمـا رمتنا عن قوس واحدة أيام الصليبيين ؟

أهؤلاء أم سيول التتر ، لما قادهم إلينا هولاكو خطوا علينا خط الجراد ؟

أهذه (الدويلة ..) بنت ثلاث سنين . . أم دول الصليبيين التى شاخت فى أرضنا إذ عاشت فيها أكثر من مئة سنة ؟

أهذه الدويلة ... ونحن بالجيش والسلاح ، ولنا الاستقلال ، ومنا المال ، أم فرنسا ذات الحول والطول ، لما حاربها رجال منا بأيديهم ، لا يملكون إلا السلاح الذى أخذوه من جنود فرنسا ؟ فوقفت فرنسا ببابانها ومدافعها عند جسر تورا سنتين لا تستطيع أن تجتازه ، وما عرض النهر إلا خمسة أمتار ، وما يحميه إلا عشرات من الثوار

أما نصرنا الله فى أيام أشد من هذه الأيام ؟

أضاعت ثقتنا بالله ثم بأنفسنا وبماضينا وبأمجادنا ؟

ألا ترونها تتلظى فى العروق الدماء ، وتتفجر فى الرؤوس الحماسة ؟ أما ترون شباب مصر ، طلاب الجامعة ، وتلاميذ المدارس ، وعمال المصانع ، يزلزلون الأرض ، لا يطلبون إلا أن يفتح لهم الطريق ، ليمشوا إلى حرب انكلترا ؟

إنهم لا يحفلون جندها ، ولا يبالون سلاحها ، ولا يخشون حديدها ونارها . ولو فتح الطريق لنساء مصر ، لمشت إلى حرب انكلترا نساء مصر !

إن ها هنا شعبا يريد أن يموت ليحيا وطنه ، فهل تستطيع انكلترا أن تبيد الشعب كله ؟

فيا أيها الحاكمون فى بلاد العرب ، لا تطفئوا هذه الحماسة . لا تزهقوا هذه الروح

يا أيها الحاكمون ، اجعلوا كل ميدان فى البلاد ساحة تدريب ، وكل قادر على الحركة جنديا . دربوهم وخلوا طريقهم ، فإنكم لا تدرون متى تحتاجون إليهم . (جندوا) كل يافع وكل كهل وكل عجوز ، لا أقول ألبسوهم جميعا بزة القتال ، وسوقوهم إلى المعركة ، لا ، فليس الجيش هو الذى يحارب فقط ، ولكن أقول سوقوهم إلى الأسواق وإلى المصانع وإلى الحقول ، حتى لا يبقى فى البلاد كلها عاطل ولا خامل ولا سائل ، ولا يبقى فى البلاد كلها شبر واحد مقفر أو خال . أقلوا عدد الموظفين ، وزهدوا التلاميذ فى (الوظائف) ، ودربوهم على حب العمل ، وكراهية الكسل ، وأقيموا النهضة على أساس شامل كامل ، واجعلوا للبلاد دستورا اقتصاديا مبنيا على أساس العلم ودواعى الحاجة ، وعدلوا أسلوب الموازنة ، وقوانين الضرائب ، فإنه لا يجوز فى شرعة العصر أن يدفع تسعة أعشار الضرائب الفقراء ، وينفق منها كبار الأغنياء . واستفيدوا من خيرات الأرض وبركات الوطن ؛ فإن هذا البترول العربى لو أنفق ثمنه فى أسباب القوة ، وفى سبيل الإصلاح ، ولم ينفق على الإثم والفسوق ومعصية الرسول ، لكانت به كل مدينة عربية ، مدينة أميركية !

ثم استنهضوا هم الرجال ، واستثيروا بذل الأغنياء ، وحرموا إنفاق المال فى وجوه السرف ، وألوان الترف ، وأنفقوا كل ما اجتمع لكم من مال فى السلاح والعتاد . دربوا الناس على القتال ، واجعلوا من الشباب جنودا مستعدين ليوم الكريهة ، وانشروا فى الشعب علم النجاة من الغارات والهجمات ، وسخروا الصحف والإذاعات لبث القوة والرجولة فى صدور الرجال

إلى السلاح — يا عرب !

إلى السلاح — فنحن فى حرب ما بقى فى فلسطين يهودى واحد

إلى السلاح — فنحن فى حرب ما بقى فى القناة انكليزى واحد

إلى السلاح — فنحن فى حرب ما بقى فى تونس أو مراكش أو أى قطر عربى أجنبى واحد

إلى السلاح — يا عرب

على الطنطاوى

قاضى دمشق

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

وهى القصة العالمية الواقعية الرائعة الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى

ثمنه ٢٥ قرشا عدا أجرة البريد